التاريخ الإسلامي

الفتوحات الأولى:

كلاهما أخاذ، سواء التاريخ السياسي أم الفكري للإسلام. ينطبق هذا القول على المرحلة الأولى، أي صدر الإسلام، ومرحلة الخلفاء الراشدين التي نعرف عنها الكثير بفضل علم الحديث. فهناك «سير» مفصلة عن النبي مثل سيرة محمد بن إسحق (متوفى عام 767) والطبري (متوفى عام 923) نشأت بالتوازي مع صدور مجموعات الحديث النبوي. لكن سرد المعطيات التاريخية لم يلق ما لقيه التراث الذي خدم مسألة تطور الشرع. خاصة أن هناك 400 رسالة من النبي، لم تخلفها أية شخصية أخرى من القرن السابع الميلادي.

والشيء الأخاذ أيضاً كان بالدرجة الأولى هو الانتشار العجيب الذي حدث للإسلام عقب وفاة الرسول ﷺ.

- 636 الفتح الإسلامي لسورية.
- 641 الفتح الإسلامي لمصر.
- 642 الفتح الإسلامي لبلاد فارس.

- 674 حاصر المسلمون القسطنطينية لأول مرة.
- 711 انتقل المسلمون إلى إسبانيا.
- 732 توقفوا عند تورز وسط فرنسا.

توسع الإسلام، خلال قرن، من شبه الجزيرة العربية غرباً حتى المحيط الأطلسي وأواسط أوروبا، وشرقاً إلى بلاد فارس حتى أواسط آسيا، ودحر الإمبراطورية البيزنطية في الأناضول. ولا شك بأن استعداد المحاربين المسلمين للموت في سبيل الإسلام قد أسهم في تحقيق هذا النجاح. وبالفعل كان العديد منهم يطمحون إلى الموت في ساحة الحرب ليضمنوا الجنة، «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون». (آل عمران ـ169).

ولكن ذلك لا يفسر سرعة الفتح الإسلامي ولا امتداده بشكلٍ كافٍ.

كانت أقوى قوة ضاربة، استطاع المسلمون بناءها حتى وفاة الرسول ﷺ، تضم اثني عشر ألف مقاتل فقط (كان ذلك في غزوة حنين). بهذه القوة العسكرية الصغيرة، التي كانت تتناسب مع قلة عدد السكان العرب وقوتهم الاقتصادية، لم يكن بالإمكان غزو إمبراطورية عالمية. لكن في الحقيقة سارع السكان في الشرق الأوسط وبلاد فارس ومصر وشمال إفريقية وإسبانيا بأفواج كبيرة إلى المسلمين لأنهم:

- كانوا متسامحين مع الأقليات الدينية.
- كانت الضريبة قليلة ويتم حسابها بمفهوم دولة القانون.

- ولأن الكثير من المسيحيين (أريان ـ دوناستيين ـ ونساطرة) اتخذوا موقفاً متشككاً من المسيحية الأرثوذكسية ـ وبخاصة الغوط الغربيين والفاندال ـ لم ينظروا إلى المسيح منذ البداية كإله، بل كنبي، شأنهم شأن المسلمين.

- كانت العقيدة الإسلامية بسيطة وغير معقدة بالمقارنة مع التثليث المسيحي المعقد.

- كان الإسلام ـ باعتباره ديناً وسطاً ـ يعلق أهمية كبيرة على الحاجات الجسدية والنفسية للإنسان على قدم المساواة، على النقيض من الرهبنة المتقشفة والزاهدة للكنيسة القبطية.

ولم يحدث في أية مرة أن قامت الجيوش الإسلامية بقتل المدنيين. وعلى نقيض أثينا وروما، لم يتم بناء المدن الإسلامية من قبل العبيد. كما لم يقم المسلمون بإحراق مكتبة الإسكندرية. وهكذا لم يعبر الإسلام عن نفسه من خلال «النار والسيف» بل ـ بفضل قوة جاذبيته ـ كإيمان وحضارة.

الخلافة في دمشق وبغداد:

بعد وفاة رابع الخلفاء الراشدين، علي بن أبي طالب، وما رافق ذلك من اضطرابات، أنتهت الخلافة عام 661 كأمر واقع، وآلت، كمنصب وراثي، إلى الأسرة الملكية الأموية التي كانت قد اتخذت من دمشق مقراً لها. وقد سبق لهذه الأسرة أن قدمت أعتى خصوم الرسول ﷺ وأثارت الغضب عند تقاة المسلمين نتيجة إسرافها في الحياة الدنيوية والرفاهية والاستبداد في الحكم.

انهار حكم السلالة الأموية عام 750 واستولت قبيلة أخرى مكية من أسرة النبي، وهم العباسيون على السلطة بالقوة. اتخذت هذه السلالة الجديدة ـ التي حكمت ما يزيد عن 500 سنة ـ من بغداد مقراً لها. بنوها لتصبح مقراً خيالياً أصبح فيه الخليفة هارون الرشيد (متوفى عام 809) وحكايات ألف ليلة وليلة، مضرب الأمثال.

أصبحت بغداد في ظل العباسيين أكبر حاضرة ثقافية وحضارية في العصور الوسطى، إذ كانت مركزاً للفلسفة والعلوم والشعر والموسيقى والموضة.

تنازع الفلاسفة:

أصبحت بغداد أيضاً مركزاً لأول جدال فكري إسلامي في علم الكلام وأول نقاش فلسفي في الإسلام ، الذي كان نتيجة متأخرة لجعل الفكر الإسلامي يناقش على الطريقة الهيلينية. تم ذلك على يد فلاسفة مثل الكندي (متوفى عام 873) والفارابي (متوفى عام 950)، لكن بالدرجة الأول أدى الاهتمام بأرسطو إلى نشوء مدرسة فكرية عقلانية أطلق على أتباعها اسم « المعتزلة» وهي المدرسة التي أباحت لنفسها أن تقيس نزول القرآن بالعقل الإنساني بدلاً من اعتباره «خادماً للدين» وقد اتخذ المعتزلة المواقف التالية:

- أزلية الكون .
- خلق القرآن .
- حرية الإرادة عند الإنسان .
- الطبيعة المجازية لوصف الله في القرآن .

أثارت هذه التعاليم - التي اعتبرها بعضهم هرطقة وتجذيفاً على القرآن والسنة - اشمئزاز المسلمين المتمسكين بالقرآن والسنة من أتباع المذهب الحنبلي الأصولي .

ألم يذكر القرآن الكريم قبلاً ﴿... **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (آل عمران - 24) وقد تبلورت مقاومة هذا التيار في ظهور فلسفة مضادة معرفية نقدية وجهت ضربة إلى المعتزلة بوسائلها الخاصة ، لعب الدور الأكبر في ذلك أبو الحسن الأشعري (متوفى عام 941) الذي يعتبر الفقيه أبو حامد الغزالي (متوفى عام 1111) من أهم فقهاء مدرسته على الإطلاق. وكانت تعاليم الأشعرية هي:

- فناء الكون .
- عدم خلق القرآن .
- الجبرية في مسألة السلوك الإنساني «التقدير».
- ضرورة الإيمان بالأسرار المنزلة دون السؤال عن الكيفية «بلا كيف»
- التخلي عن الميتافيزيقا ﴿**وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف ـ 33).

استطاعت النزاعات بين الفلاسفة في بغداد أن تتخذ أشكالاً سياسية. وبين حين وآخر كان هذا الخليفة أو ذلك يتعاطف مع تيار فكري أو آخر، أو يعاقب على تيار آخر ، وعلى الدوام كان النصر

للأشعري والغزالي، حيث كشفا بنقدهما المعرفي الذي سبقا به كلاً من «كانت» و «لودفج فيتغنشتاين» أن الميتافيزيقا هي مضاربة فكرية، وبالتالي تخطيا كل فلسفة في الإسلام .

ومنذ ذلك الوقت لم يعد المرء يستطيع الحديث عن «فلسفة إسلامية « بل عن مسلمين يحترفون الفلسفة .

وقد انسجم التيار الإسلامي المحافظ (أي الأرثوذكسية الإسلامية) مع التأكيد الوارد في القرآن الكريم بأن ملاحظة آيات الله في الطبيعة لا تفيد إلا من يؤمن بها سلفاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام ـ99).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت ـ 24).

وليس لقوم لا يؤمنون ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس ـ101).

وحسب القرآن الكريم يجب أن يتقدم الإيمان على المعرفة، فالمعرفة لا تؤسس للإيمان بل تؤكده.

إن الذين تتلمذوا على يد مارتين هايديغر Martin Heidegger وهانس جورج غادامر Hans Georg Gadamer سرعان ما فهموا ذلك، وحسب نظريتهما المعرفية (ما بعد الحداثة و اللا ديكارتية) فإن

الإنسان لا يرى إلا ما يريد رؤيته، أو ما يستطيع أن يراه نتيجة تكوينه الاجتماعي، وهو يزيد من معرفته من خلال الأسئلة، لكنه لا يستطيع أن يطرح إلا تلك الأسئلة التي يسمح بها محيطه الاجتماعي أو يثيرها.

هذه هي فلسفة الدين الإسلامي منذ ما يزيد عن ألف سنة.

الأندلس:

لم ينج إلا أمير واحد فقط من مجزرة قام بها العباسيون ضد منافسيهم الأمويين عام 750م، نجا هذا الأمير عن طريق مليء بالمغامرات قاده إلى مدينة قرطبة الإسبانية. وقد استطاع خلفه المشهور عبد الرحمن الثالث (929 - 961) أن يؤسس خلافة أموية منافسة، وأصبحت قرطبة في عهده ثاني أهم مركز للثقافة في العالم.

كان التعايش بين المسلمين واليهود والمسيحيين في الأندلس آنذاك (قرطبة - اشبيلية - غرناطة - مورسية - طليطلة - سالامانكا) - بالرغم من بعض الحزازات، مثالياً، بحيث أصبح العصر الذهبي الذي يحن إليه المسلمون. ويمكن قراءة ذلك الازدهار من خلال جامع قرطبة الكبير والغيرالدا Giralda في إشبيلية وقصر الحمراء في ظاهر غرناطة. أما كبار مفكري الأندلس مثل الفقيه والفيلسوف «ابن رشد» وكذلك الفقيه وعالم المنطق والنفس والجمال «ابن حزم» والكاتب الروائي الفيلسوف «ابن طفيل» والفيلسوف الديني «ابن عربي» فما زالوا متألقين حتى القرن الحالي.

عن طريق ابن رشد تلقت أوروبا الغربية الفلسفة الأرسطوطاليسية، التي كانت خافية عليها، بصيغتها «المؤسلمة» وبالتالي الباعث على اتباع المذهب النصي أو الحرفي. ومن الأندلس جاءت دوافع حاسمة لقيام غناء التريادور البروفينسيالي من خلال شعر ابن حزم الغزلي، ولم يحظ ابن عربي يوماً بالمكانة التي يحظى بها الآن بين المتصوفين الأوروبيين.

وقدم ابن طفيل نموذجاً مستفيضاً لقصة «روبنسون كروزو». وتذكرنا الأقواس المدببة للكنائس المبنية على الطراز المعماري الغوتي بالأندلس.

من هنا (من صقلية الإسلامية) دخل نظام الأعداد العربي ـ الهندي، بما في ذلك الصفر، إلى أوروبا، ليحل محل الأعداد الرومانية التي لم يكن التعامل معها سهلاً.

وعن طريق قنوات إسلامية دخلت المدفعية وعلم الفلك، وعلم النبات والكيمياء، والجراحة وعلم الأوبئة، وكذلك علم الصحة الحديث، والبوصلة والبصريات والورق وعلم المثلثات، إلى الغرب. وتعلم الغرب أيضاً الطب، حتى القرن السابع عشر، من ابن سينا، الفيلسوف والمتصوف والطبيب الإسلامي الذي حظي كتابه الطبي «القانون»، بستة عشر طبعة، خلال الربع الأخير من القرن الخامس عشر. وكذلك كان من الطبيعي جداً أن صدرت أول ترجمة للقرآن الكريم عام 1143 في طليطلة، التي كانت مركزاً فكرياً بين العالمين.

انتهى هذا الفردوس الأندلسي، بعد حوالي 800 سنة على قيامه، بسقوط غرناطة عام 1492. ولم يكن ذلك بسبب قوة الهجمات المسيحية (حروب الاسترداد) بقدر ما كان نتيجة للخلافات المستعصية بين المسلمين أنفسهم، والخلاف الذي لم يسوّ يوماً بين العرب والبربر.

فكلما سارعت قبائل شمال إفريقية من الموحدين أو المرابطين بحماس إصلاحي لمساعدة المسلمين العرب والغوط الغربيين، كان يُنظر إليهم كمحتلين بربريين.

وفي نهاية سيئة تم، اعتباراً من عام 1608، طرد 330 ألف موركسي بقي هناك، من إسبانيا، خلافاً للاتفاق. وكان ذلك أول مرة يتم فيها «تطهير عرقي».

الحملات الصليبية والاجتياح المغولي:

في وقت متزامن تقريباً، تعرض الإسلام في الشرق إلى كوارث مشابهة، جاءت أول الأمر من الحملات الصليبية، ومن ثم من موجات الاجتياح المغولي التي دمرت كل شيء وسقط ضحيتها آخر الخلفاء العباسيين عام 1258.

بعد أن تسبب الصليبيون عام 1099 بحمامات دم في القدس يصعب وصفها، استوطنوا في الشرق الأوسط حتى عام 1291. ولم يكن تفوقهم على المسلمين إلا عسكرياً، بينما كان المسلمون متفوقين عليهم في كل المجالات الأخرى بما فيها الصحة والطب والتعليم

ومستوى الحياة ونمط المعيشة والتسامح والالتزام بالمواثيق؛ ولذلك استطاع قاهر الصليبيين صلاح الدين الأيوبي (1137 ـ 1193) أن يتحول إلى أسطورة حتى في الغرب.

وقد اتخذت الكارثة المغولية تحولاً غير متوقع، وذلك عندما اعتنق المنتصرون دين المغلوبين، وتحولوا خلال مدة قصيرة إلى مسلمين، (والشيء نفسه حدث قبلاً مع الأتراك في ظل الخلافة العباسية) عندما لم يكن المماليك في مصر تقريباً الوحيدين الذين صمدوا عسكرياً أمام المغوليين عام 1260 في معركة عين جالوت، التي اتخذ الخليفة ـ الذي لم يعد عربياً ـ بعدها من القاهرة مقراً له.

العثمانيون:

باستيلائهم على الأناضول أولاً، ومن ثم على القسطنطينية (1453)، وأخيراً على مصر (1517) صعد الأتراك العثمانيون إلى دولة إسلامية حامية.

استولى السلطان سليم الأول على الخلافة من المماليك المغلوبين. وفي ظل سلفه سليمان القانوني (1520 ـ 1566) عاشت الإمبراطورية العثمانية عصرها الذهبي، خاصة بوجود المهندس المعماري سنان، أذكى المهندسين المعماريين على مدى قرون، (الجامع السليماني في استانبول، وجامع السليمية في أدرنة).

والآن ينشر المسلمون الذعر للمرة الثانية في أوروبا، باستيلاء العثمانيين على أجزاء كبيرة من أوروبا، منها هنغاريا، وحاصروا العاصمة الإمبراطورية فيينا مرتين (1529 و1683).

الاستعمار:

بمعركة ليبانتو Lepanto البحرية (1572) بدأ الموقف يتغير شيئاً فشيئاً. فعلى الجانب التركي بدأ ـ بعد الفشل الثاني أمام فيينا ـ تدهور «المرحلة الزنبقية» التي انتهت آخر الأمر باستعمار كافة مناطق الاحتلال العثمانية خارج الأناضول. وكان البدء بالسيطرة الإمبريالية على العالم الإسلامي من المغرب حتى الهند، ومن القوقاز حتى أندونيسيا، هو ظهور نابليون بونابرت في مصر (1798ـ 1801) حيث نصّب نفسه حامياً لجميع المسلمين وتظاهر بالإسلام. (الموقف نفسه اتخذه بعد مئة عام القيصر الألماني فيلهلم الثاني في أثناء زيارته إلى كل من طنجة والقدس).

عند ذلك فقط تعرّف الغرب جيداً كمستعمر على التحف المعمارية الإسلامية مثل القلعة الحمراء في الهند، وتاج محل في أغرا، والكتبية في مراكش، وجامع القيروان المهيب، أو جامع ابن طولون في القاهرة، لكن دون أن يقرنوا جمالية ذلك بروحانية حضارة سامية مغروسة دينياً. فأوروبا حكمت المشرق لكنها لم تفهمه.